عقبة بن نافع في الشعر الجزائري الحديث والمعاصر

دلالات وجماليات

د. جمال مباركي - الجزائر

الدارس للخطاب الشعري الجزائري الحديث والمعاصر يجده يضرب في أعماق تراث بالغ الغنى والرحابة. ويبدو له متن هذا الخطاب مسكونا بذاكرة التاريخ والشخصيات الفاعلة فيه. والنصوص القديمة.

ويعد هذا دليلا على أن الشاعر الجزائري لم ينطلق من فراغ في كتابة نصوصه. بل يكتب ووراءه تراث ضخم يمتاح من كنوزه مما يغني به تجربته الشعرية. ويأخذ منه ما يشاء مما يناسب رؤاه الفنية. وفي ذلك بعث لتراث الأمة واحياء لتلك النصوص والشخصيات كي تظل معطاءة تغترف منها المخيلة التصويرية التي تستند لمخزونها الحضاري الإبداعي والفكري. فجاءت النصوص الشعرية الجزائرية الحديثة والمعاصرة مشبعة بتلك الإشارات واللمحات الدينية التاريخية. يستلهمها الشاعر ويدمجها في خطابه الشعري لتسهم في تشكيل البنية السطحية للنص واغناء دلالاته المتنوعة. واثارة التداعيات في أذهان المتلقين.

ولقد استهوت شخصية عقبة بن نافع الفهري (ت ٦٣هـ، ٦٨٣م) العديد من الشعراء الجزائريين المحدثين والمعاصرين فوظفوها في أشعارهم، مما جعل روح هذه الشخصية الجهادية ترفرف فوق هذه النصوص، فكان لتوظيف هذه الشخصية دلالات فكرية ومسح جمالية يستشفها القارئ أثناء قراءته لهذا المتن الشعري، ويمكن أن نوجز هذه الدلالات والجماليات فيما يأتي:

◁◁ دلالات التوظيف:

■ الدلالات التاريخية الحضارية:

الحق أنه لا يمكن لأي دارس أن يتناول قضية أدبية ما بمعزل عن دلالاتها الفكرية ووظائفها الجمالية التي تنهض بها، بل لابد أن تصبح دراسة استدعاء الشخصيات في الشعر عملا مشتركا بين ذاكرة المبدع الحصيف والمتلقي الكفء. واستحضار شعرائنا لشخصية عقبة بن نافع الفهري تولد من إعجابهم بهذه الشخصية الجهادية، وهدفهم أن يوقظوا فينا تلك الظلال التاريخية والروابط العاطفية التي يوحي بها اسم (عقبة) نظرا لما يملك هذا الاسم من هيبة وعظمة في المخيلة الإسلامية مما يجعل الشاعر له قدرة الاستحواذ على عقول وعواطف متلقيه، يقول محمد مصطفى الغماري:

الفاتحون.... وحبي فيض نخوتهم
الممطرون على أبعادنا سحبا
يستل (عقبة) أوهام الألى سكروا
بالتيه واعتنقوا الظلماء والصلبا
وطارق يصنع التاريخ ملحمة
على المحيط ويلقي الرعب والخطبا
وقيس في درنة× تزهو طلائعه
ما فارق السيف حتى زلزل القضبا
كانوا..... فأزهر في التاريخ كونهم
وأفرع الفتح في راياتهم عجبا
فكل ظامئة من ضوئهم سكرت
وكل فقر على نعمائهم صلبا [1]

فالشاعر هنا يستحضر صورا من صور البطولات العربية الإسلامية ليحيي تاريخا وحضارة ويشخص به صور الرجولة الضائعة والخذلان القائم من خلال

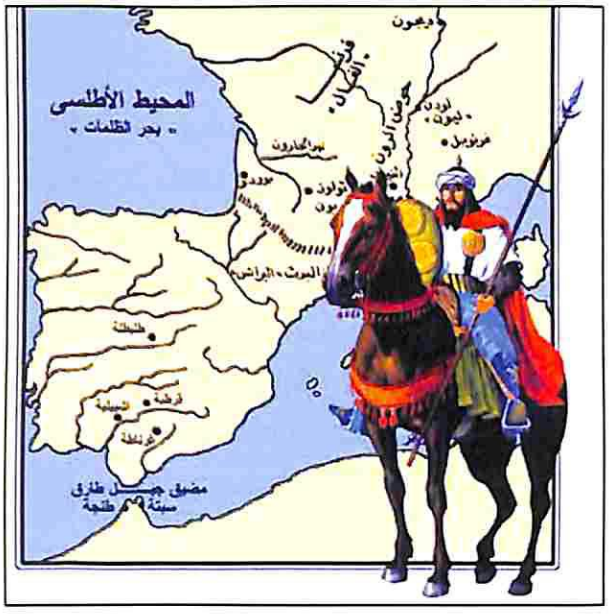

■ استدعاء الشخصيات في الشعر عمل مشترك بين ذاكرة المبدع الحصيف والمتلقي الكفء.

استرجاعه لرموز الفاتحين: (عقبة، وطارق، وزهير بن قيس البلوي) وهي رموز فاعلة في التاريخ الإسلامي توقظ فينا الحس التاريخي لربط الحاضر والمستقبل بالماضي الزاهر.

ويقول أيضا:

كنا الصلاة وغيرنا (ضغث) وتصدية كذاب
الله أكبر في الجوانح لا تغيب ولا تشاب

إن يدمنوا دعوى الشبابُ فنحن يا غدنا الشبابُ
نحن الذين (بعقبة) كانوا وهم كانوا الخرابُ
سكروا بدعوى الجاهلية.. إن دعواهم سرابُ [٢]

جلي في هذا المقطع الشعري – أن الشاعر يستحضر شخصية عقبة ليبث فينا الإحساس بالحاضر وتحقيق كينونة الذات ورغائبها، والثورة على الواقع المتآكل نتيجة فقدان الأمة كيانها، وذوبانها في شخصية الأمم الأخرى.

فالشاعر يوظف شخصية (عقبة) وما تحويه من ظلال تاركا للقارئ فرصة إنتاج المعنى،لأن الشاعر يفترض في القارئ الإلمام السابق والكافي بهذه الشخصية، وهذا الافتراض يناظر منح القارئ سلطة كي يدلي بأحكام عما يمكن أن يكون قد شعر به وفكر فيه في خلال عملية القراءة [٣].

ومن أمثلة هذا التوظيف الذي يسترجع أجواء الفتح المبين عن طريق استعارة شخصية (عقبة بن نافع) قول الشاعر محمد آل خليفة:

اليوم تأخذ ثورة عن ثورة
أسمى العهود، وثائر عن ثائر
اليوم يلقى (عقبة بن نافع)
فوق الجزائر (عقبة بن عامر)
عهد العبادلة استعاد فتوحه
فالصحب فيها وارد عن صادر
وجنود (عقبة) عبر أفريقية
تطوي الفجاج بمنسم وبحافر
الله أكبر عاد عهد (محمد)
والراشدين، وباد عهد الكافر [٤]

كما نجد الشاعر مصطفى بن رحمون يستعير شخصية (عقبة بن نافع) استعارة تفيض بإيحاءات بالغة الغنى والرحابة في وجدان المتلقي. يقول:

جُلْ معي في فتوح (عقبة) وانفض
يا أخي كل ضعف ويأس
وتوجه إلى الجزائر تبصر
من معاني الفداء أروع درس
ههنا تبصر الشهادة تكسو
مهج الفاتحين أفخر لبس
وطن عطر الإله ثراه
بضحايا الفتوح من خير جنس
وبنى فيه للعروبة والإسـ
ـلام صرحا يزهى بأمتن أسّ
لم يزل من جهاد (عقبة) مزدا
نا بأزكى جنى وأكرم غرس
أمة تعشق الهدى إلى التحرير
يحدو جهادها كل حدس
رشحتها إلى الخلود مساع
بوأتها للمجد أفخر كرسي [٥]

ههنا يؤصل الشاعر تجربته الشعرية عن طريق ربطها بجذورنا في تراثنا العريق، وذلك عن طريق التفاعل البناء بين الشاعر وتاريخه باستدعائه شخصية (عقبة بن نافع) واستحضاره للتاريخ الإسلامي المجيد، وهو «باستغلاله هذه الإمكانات يكون قد وصل تجربته بمعين لا ينضب من القدرة والإيحاء والتأثر : ذلك لأن المعطيات التراثية تكتسب لونا خاصا من القداسة في نفوس الأمة ونوعا من اللصوق بوجدانها »[٦].

فالحس التاريخي الذي تمتع به شعراؤنا هو الذي جعلهم يوظفون شخصية (عقبة بن نافع) في إطار المفارقة التصويرية لإبراز حدة التناقض بين ماضينا وحاضرنا، من خلال مقابلة ما يمثله عقبة من انتصار ومجد وعزيمة متأججة للفتح، وما يمثله واقعنا من ضعف وانكسار وتقاعس، و هي مفارقة بين روح الجهاد المتوقدة التي كانت تضطرم بين أضلاع المجاهد القديم، وروح الهزيمة التي تسري في أوصال خلفه.

■ **الدلالة الرمزية الشعرية:**

استعارة الذاكرة الشعرية بعض الشخصيات التي لها مكانة في التاريخ العربي الإسلامي لا يأتي من قبيل توشية الكلام أو التبرك بتلك الشخصية، وإنما يأتي على سبيل الترميز والتلويح.

ويستفيد القارئ المطلع على التاريخ الإسلامي، وعلى سيرة عقبة بن نافع الجهادية بالخصوص من قراءة متن الشعر الجزائري الحديث والمعاصر، ويلمس في رمز هذه الشخصية ظلالا وارفة ودلالات كثيرة؛ لأن شخصية (عقبة بن نافع) تتحول في النصوص المقروءة إلى نص قائم بذاته يفيض بالجهاد والنبل والإيثار...

يقول مفدي زكريا:

وُهبنا العروبة جنسا ودينا
وإنا بما قد وُهبنا رضينا
إذا كان هذا يوحد صفا
ويجمع شملا رفعنا جبينا
وإن كان يعرب يرضى الهوان
ويلبس عارا...أسأنا الظنونا
فأهلا وسهلا بأبناء عم
نزلتم جزائرنا فاتحينا
ومرحى لعقبة في أرضنا
ينير الحجى ويشيع اليقينا
ويعلي الصوامع في القيروان
ويرفعها للدفاع حصونا

■ **يؤصل الشاعر تجربته الشعرية عن طريق ربطها بجذورنا في تراثنا العريق، وذلك بالتفاعل البناء بين الشاعر وتاريخه باستدعائه شخصية (عقبة بن نافع).**

مفدي زكريا

محمد العيد آل خليفة

يبث المراحل في كل فج
فراعت أساليبه العالمينا[٧]

فالشاعر في هذه الأبيات ينزع إلى إضفاء لون من الموضوعية والدرامية العاطفية على عاطفته الغنائية، واستخدام رمز (عقبة) كمعادل موضوعي لتجربته الذاتية يعيد من خلاله زخم التاريخ، ويومئ إلى تلك الخطة العسكرية غير المسبوقة التي وضعها (عقبة بن نافع) للجيش الفاتح وهو في طريقه من مصر إلى المغرب.

ويستخدم الغماري شخصية (عقبة بن نافع) رمزا للجهاد الفرض المغيب في عصرنا، خاصة والأمة مسلوبة الأرض منتهبة الثروات يقول:

بيعت بأسواق الصغار حمائل الماضي السعيد
لا سيف (عقبة) لا جياد الفتح تختصر الحدود
ماذا؟ أردة أمة للجاهلية من جديد؟[٨]

هكذا ينتقل الشاعر من التعبير عن عقبة إلى التعبير بعقبة حيث منحها قدرة على تخطي الزمن التاريخي ليعبر به عن هموم معاصرة، وقد عبر بعقبة لإبراز نوع من المفارقة الجماعية، بين الواقع التراثي لهذه الشخصية، وبين ما آل إليه أمر الأمة في الحاضر.

■ **الدلالة الإنسانية**

لقد شب عقبة – رضي الله عنه – على الطهر والعفاف والورع، وهي صفات بقيت ملازمة له طول حياته حتى اشتهر بها بين أصحابه فقدروه لأجلها، وأكبروا ما كان يتسم به من عزة نفس [٩] وقد أولع شعراؤنا بهذه الصفات الإنسانية النبيلة، فما ذكروا عقبة في شعرهم إلا أشاروا إليها، يقول الشاعر (محمد العيد آل خليفة) في قصيدة (نشيد عقبة):

يا أرض عقبة اسلمي
من الشرور واغنمي
فأنت أرض المسلم
وداره المفضلة
بلغت م المجد المدى
وكنت مطلع الهدى
وصنت دين أحمدا
من اليد المضللة
تاريخه الماضي لنا
في السناء والسنا
وفيه تصميم البنا
للنشأة المستقبلة
عقبة ضرغامٌ هَدَمْ
بأرضنا كل صنم
ونحن عقبان القمم
على البغاة مرسلة[١٠]

لقد تغنى الشعراء بما أرساه (عقبة بن نافع) من دعائم العدل والأخوة والمحبة وهي قيم إنسانية نبيلة نسعى لتربية أجيالنا الحاضرة واللاحقة عليها.

■ **يستفيد القارئ المطلع على التاريخ الإسلامي، وعلى سيرة عقبة بن نافع الجهادية بالخصوص من قراءة متن الشعر الجزائري الحديث والمعاصر.**

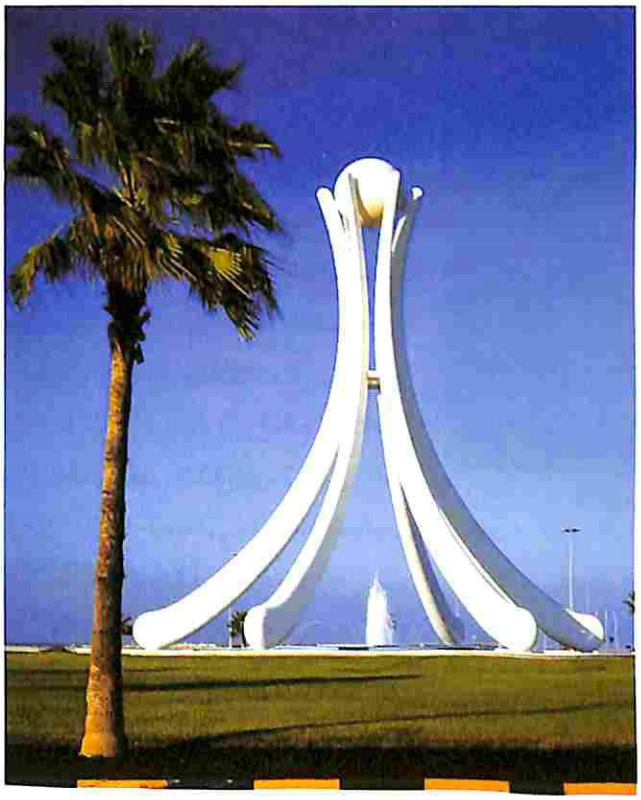

جماليات الاستدعاء:

إن الشاعر عندما يلجأ إلى استدعاء الشخصيات الفاعلة في التاريخ الإسلامي المجيد إنما يفعل ذلك ليكشف للقارئ عن ماض جهادي زاهر تدعوه لسعة الاطلاع عليه، ولكي يحرك نصه من المشاعر الذاتية الضيقة إلى سعة المتعدد المنفتح على التاريخ، ومن ثمة فإن استحضار «عقبة بن نافع» أو استدعاء أي شخصية تراثية في الشعر ليس مجرد توشية أو لعبة لغوية مجانية،

بل لهذا الاستدعاء جماليات عدة ينهض بها في مجال النصوص الشعرية، ومن هذه الجماليات:

■ **جماليات إثارة الذاكرة القرائية:**

تعتبر عملية استدعاء الشخصيات التراثية من الوسائل الفنية التي يوظفها الشاعر ليبعث تراثه الحضاري من جديد؛ فالشخصيات المغمورة أو المهملة بفعل أيديولوجيا معينة تحيا من جديد في النصوص التي تعيد كتابتها لتؤدي رسالتها مرة أخرى.

والشاعر عندما يستدعي تلك الشخصيات في نتاجه الفني، إنما يستحضر الشخصيات التي فرضت نفسها في التاريخ الممتد عبر الأجيال والأحقاب المختلفة، أو تلك التي كانت محط إعجابه واستولت على ذاكرته، أو كانت تجارب الشخصية المستدعاة من جنس تجربته الشعرية، فالتجربة الشعرية الجهادية تستحضر رموز الجهاد،وقد تكون تلك الشخصية مناقضة لها، فيعيد الشاعر كتابتها لينفر منها كشخصية (سجاح أو مسيلمة الكذاب).

من هنا فالشاعر (مصطفى بن رحمون) رحمه الله – يقف عند قبر عقبة بن نافع ليتذكر تلك الأمجاد في قصيد مترع بالحنين فيقول:

من رحيق الخلود أترعت كأسي
وشفيت الفؤاد منها ونفسي
وتمتعت من سناها مليا
وبروحي انتشيت منها وحسي
لم أزل بالخيال والعقل والرو
ح أناجيه في وقار وهمس
فأرى من ملائك المجد أسرا
با على جانبيه تضحي و تمسي
والعلا حوله أوانس ألبسـ
ـن برودا من سندس ودمقس [11]

فالشاعر هنا يستثير ذاكرة القارئ من خلال استحضار مختلف الظلال عن طريق التداعي الوجداني والصوري في القراءة الأولى داخل القراءة الثانية.

■ **جمالية إنتاج الدلالة الجديدة:**

لاريب في أن الشاعر يعيد من جديد كتابة الشخصيات التراثية والوقائع التاريخية والماضية، ويحاورها ليعبر عن واقع راهن ليستشرف مستقبلاً زاهراً « وميزة هذا النوع أنه يمنح أدوات الخلق الشعري قدرة هائلة على التوصيل بسبب توظيف المخزون العاطفي لثقافة مشتركة بين المبدع والمتلقي»[12].

والشاعر عندما يلجأ إلى توظيف تلك الشخصيات ويعقد الحوار معها لا يعيد كتابتها على نحو صامت بحيث يشير إلى تلك المزايا التي تمتعت بها الشخصية التراثية، وإنما يستحضرها ليلقي عليها كثافة وجدانية جديدة «وينتزع الحكمة من التاريخ بأسمائه المنقوشة في الوجدان الجماعي، ويوقد الحس التاريخي والرغبة العارمة في تجاوزه وتعصيره للثورة على إحباطات الواقع المهين، ويستثير المكنون في الوعي الجماعي ليتجاوز العاطفة الفردية ويعزف على الشعور في طابعه القومي الإسلامي المشترك »[13]، ومن هنا تتولد الدلالة الجديدة للنص المقروء الذي قد يكون ثائرا على بعض الشخصيات أو ساخرا منها أو مشوها لها، لينفر القارئ منها، أو مهادنا ومتغنيا بها للاستفادة منها في إطار معاصر، كأن يستدعي الشاعر شخصية (عقبة) ليشير إلى الأخوة الراسخة بين العرب المسلمين الفاتحين والبربر، ويمنحها صفة الدوام.

يقول الشاعر (عامر شارف):

وهنا استفز الدهر أعظم فاتح
بعد الفتوح تعانق الأعداء
ذا عقبة الفهري حط رحاله
إن الرحاب بطهره خضراء
اليمن والإيمان كانا راية
وهنا التقى والسادة الأمناء [14]

وقد يشحن الشاعر نصه بحمولة تاريخية ليجسد بها أحداثا وهموما معاصرة. يقول الغماري:

يا راي (عقبة).. يا خيول (محمد) (بدر) بجرح الرافضين ثبات
وعلى جناح الضوء تزرع نارها
فتميد ملء دمائنا الواحات [١٥]

ههنا يشخص الشاعر من خلال توظيف شخصية (عقبة بن نافع) تغريب عقول المسلمين في عصرنا، وذلك بتشويه حقائق التاريخ الإسلامي،ودس الفرقة والعداوة بينهم، وإبعادهم عن دينهم وأصالتهم.

وبذلك يكتنز النص المقروء بدلالات جديدة معاصرة، من بينها افتتان المسلمين بالفكر الغربي الدخيل وتخليهم عن الفكر الأصيل، وذلك من خلال تبنيهم للنظريات الفاسدة والفلسفات الوافدة مما يؤدي إلى ميلاد حضارة مشوهة عرجاء [١٦].

■ **جمالية الإحالة والإيجاز:**

الإحالة هي الإطار المرجعي للنص (frame of référence) الذي يؤلف مجموع الخبرات والمعارف التي تعمل على تشكيل النص وفعل التلقي، وينطوي على مخزون عام من التجارب والرؤى والإشارات والمشاعر التي قد تتباعد في مسافاتها وصلتها بالواقع الحضاري، وقد تتقارب[١٧].

فالإحالة هي المرجعية التي تكتب النص وفي ضوئها يقرأ ويفهم، وقد تكون هذه الإحالة تاريخا، أو ثقافة، أو شخصيات، أو حضارة، أو نصوصا، أو علوما...وكل ماله من امتداد داخل السياقات الخارجية للنص، وهذا ما أكد عليه أحد النقاد المعاصرين حينما رأى:«أن الهدف من الشعر ليس الصورة، بل العالم والعلاقات التي تربط بين الناس...فمطلب الشعر يتفق مع مطلب الثقافة»[١٨].

وقد تنبه إليها نقادنا القدامى، فقال ابن (رشيق):« ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السابقة »[١٩].

■ **الحس التاريخي الذي تمتع به شعراؤنا هو الذي جعلهم يوظفون شخصية (عقبة بن نافع) في إطار المفارقة التصويرية لإبراز حدة التناقض بين ماضينا وحاضرنا.**

وكلام ابن رشيق عن الإحالات التاريخية فصله حازم القرطاجي فقسم الإحالة إلى أنواع:إحالة تذكرة، إحالة مفاضلة، إحالة إضافة. واشترط على الشاعر أن يعتمد على المشهور منها والمأثور « وإذا وقعت الإحالة على الموقع اللائق بها فهي من أحسن شيء في الكلام»[٢٠].

ههنا يبدو حازم متفطنا إلى جمالية الإحالة، إذا كانت من الإحالات المشهورة المأثورة التي لها صلة متينة بالواقع حتى توفر قدرا دلاليا بين الخاصة والعامة، بين الشاعر والمتلقي « يسمح بوصول الدلالة مكتملة دون اعوجاج، ويحقق الغاية الاجتماعية الأخلاقية للشعر»[٢١].

لهذه الغاية نجد شعراءنا – المحدثين والمعاصرين – قد تنبهوا إلى شخصية (عقبة بن نافع) التي يشع نورها على الكون، ويستنشق عبيرها العالم الإسلامي

في مشرقه ومغربه، فأحالوا عليها في شعرهم، واستخدموها رمزا للجهاد والنضال والنبل والطهر والعفاف... يقول الغماري:

للنور للثورة الخضراء ينتسب
يمده بالإباء الرفض والغضب
تضمه ألف ذكرى ألف أغنية
خضراء يحنو عليه النخل والعنب
نسائل الأهل يا أحبابنا امتشقوا
سيوف (عقبة) جل السيف والطلب
على ترابك يا سمعي ويا بصري
دم المجاهد بالأضواء ينسكب
على يديه اشرأب الموت قنبلة
غضبى تعانق فيه النور واللهب [٢٢]

وإذا كانت الإحالة جمالية من جماليات استدعاء الشخصيات في الشعر فإن من جماليات الإحالة الإيجاز، لأن هذه الإحالة قد تكون عبارة شعرية موجزة تحيل إلى تاريخ أو مجتمع أو ثقافة أو حضارة بكاملها، يلخصها الشاعر ويسكبها على مربعات من ورق، عن طريق ذكره لمدينة أو مكان مشهور، أو شخصية مثل شخصية (عقبة بن نافع) يستخدمها الشعراء على شكل «تلميح» أو «إشارة» تحمل في طياتها دلالات واسعة فتتحول عند القارئ إلى نص قائم بذاته ■

هوامش:

(١) مصطفى محمد الغماري، قصائد مجاهدة، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٨، ص ١٢٥ – ١٢٦.

(٢) الغماري، قصائد مجاهدة، ص ١٨١.

(٣) قرادة سادونيك: مفاهيم الأدب بوصفها اطرادا للإدراك النقدي « ترجمة: حسن إسماعيل، مجلة فصول، م٦، ع٤، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ص ٣٩.

(٤) محمد العيد آل خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٦٧، ص ١٦.

(٥) مصطفى بن رحمون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠، ص ٤٠.

(٦) علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية، ص١٦.

(٧) مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني، د. ت، ص ٢٧.

(٨) الغماري، عرس في مأتم الحجاج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص٩٧.

(٩) ينظر: صلاح مؤيد العقبي، القائد الفاتح عقبة بن نافع الفهري القرشي، ط١، المطبوعات الجميلة، الجزائر، د.ت، ص٤١.

(١٠) – محمد العيد أل خليفة، الديوان، ص ٥٧٨.

(١١) مصطفى بن رحمون، الديوان، ص ٤٣.

(١٢) أحمد المعداوي، أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث، ط١، دار الأفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣، ص ٩٠.

(١٣) مصطفى بن رحمون، الديوان، ص ٤٥. لجنة الحفلات لمدينة

(١٤) صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري، ص١١.

(١٥) عامر شارف، إلياذة بسكرة، ط١، لجنة الحفلات لمدينة بسكرة، ٢٠٠٢، ص٨.

(١٦) مصطفى محمد الغماري، أسرار الغربة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٢، ص١٨٥.

(١٧) مصطفى بلقاسمي، الإسلامية في شعر مصطفى الغماري، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(١٨) ينظر، إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ط١، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩١، ص ٣٣٣،٣٣٤.

(١٩) سعيد الغانمي، اللغة والخطاب الأدبي (اختيار وترجمة)، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٩، ص ١٩.

(٢٠) ابن رشيق، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محمد مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٨٩.

(٢١) حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٨٩.

(٢٢) مصطفى محمد الغماري، الم وثورة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٤٠.